

الزمن الأسطوري عبر تاريخ المغرب الأقصى أسطورة "تاسليت – أنزار" أنموذجاً

هشام فنكاشي

باحث سلك الدكتوراه تاريخ العصر وسيط
كلية العلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



د. حميد اجميلي

أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية



مُلخَص

عرفت الحضارة المغربية عبر تاريخها العريق على غرار باقي الحضارات الإنسانية، مجموعة من الأساطير امتزج فيها ما هو وثني بما هو ديني بما هو قدسي، تعكس نظرة الإنسان للكون المحيط به؛ في محاولة منه لضمان البقاء والاستمرار، وتأمين الحماية له من كل ما يعترضه من أخطار؛ كصراعه مع الحيوانات الضارية، والكوارث الطبيعية، ومن كل مجهول يهدد سلامته وبقائه على وجه الأرض. سنتناول في هذا البحث أسطورة "تاسليت أنزار" أو "عروس المطر" والطقس المرتبط بها "تاغنجنا"؛ والذي يهدف إلى استدرا الماطر في زمن الجفاف والمجاعات. حيث سنقوم بدراسة الطقس في الزمن الممتد لتاريخ المغرب، من العصر القديم إلى غاية الزمن الراهن، وتحليله من الجانب الكرونولوجي، بدءاً من عرض الأسطورة الأصلية للطقس، وزمن تأسيسها؛ والتطرق لطقوس "تاغنجنا"، بالعديد من مناطق المغرب الأقصى، عبر أزمنة مختلفة، ورصد أوجه التشابه والاختلاف بينها، ورصد مدى حفاظها على النواة الأصلية التي تأسس عليها. ونختم المقال بالكشف على مدى قدرة طقس "تاغنجنا" على التكيف مع الدين الإسلامي.

كلمات مفتاحية:

الزمن الأسطوري؛ تاغنجنا؛ أنزار؛ الاستتارة الجنسية؛ الزمن الممتد؛ الزمن الأول

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣١ ديسمبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٤ يناير ٢٠٢٤



10.21608/KAN.2024.353619

معرف الوثيقة الرقمي:

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حميد اجميلي، هشام فنكاشي، "الزمن الأسطوري عبر تاريخ المغرب الأقصى: أسطورة "تاسليت – أنزار" أنموذجاً". دورية كان التاريخية، - السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون، مارس ٢٠٢٤، ص ٤١ - ٤٨.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: hicham.fangachi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نُشر هذا المقال في دورية كان International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقَدِّمَةٌ

الأسطورة جنس إبداع أدبي شفهي مجهول المؤلف، أبدعها خيال الشعب وظلت تتناقل وتتطور على شفاه الناس ومخيلتهم عبر القرون. ولقد ارتبطت الأسطورة دائماً ببداية الإنسانية وبطفولة العقل البشري، حيث مثلت لدى كل الشعوب سعياً فكرياً بدائياً لتفسير ظواهر الطبيعة الغامضة. ولذلك اختلفت أساطير البشرية وتباين مستواها ومحتواها. فكانت أكثر تطوراً لدى الشعوب المتحضرة مثل الإغريق، بينما نجدها أقل تطوراً لدى الشعوب العربية والإسلامية لأسباب عدة، أهمها النظرة السلبية للدين إليها. وتحكي الأسطورة تاريخاً مقدساً، أي حدثاً بدئياً حدث في بداية الزمن، فشخصيات الأسطورة ليست كائنات بشرية: إنها آلهة أو أبطال محضرة. فالأسطورة اذن هي التاريخ لما سبق حصوله في زمن الأصول، وقصة ما فعلته الآلهة أو أنصاف الآلهة في الزمن الأول؛ فهي تعلن عن ظهور وضع كوني جديد أو حدث بدئي.

يهدف هذا البحث إلى دراسة أسطورة "تاسيلت أنزار" والطقس المرتبط بها، والذي يسعى إلى استدرار المطر في زمن القحط والمجاعات. لن نقتصر في تناولنا في هذا المقال على عرض طقس "تاغنجا" فقط، فهناك العديد من الدراسات التي تطرقت لهذا الطقس كما سنبين لا حَقاً، لكننا سنحاول تتبع هذا الطقس عبر الزمن الممتد لتاريخ المغرب الأقصى، ورصد مدى قدرته على الاستمرارية والوفاء لأسطورته الأصلية. ومن بين المراجع والمقالات التي تطرقت لطقس "تاغنجا" كتاب «المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط: إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات» لعبد الهادي البياض. والبحث الموسوم بعنوان: «"تاغنجا" أو "تيسيلت أنزار" - طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي» للباحث هشام كمنوني، بحث ضمن مؤلف جماعي بعنوان: «الطقوس والممارسات الفلاحية: إثنوغرافيات التراث اللامادي». كما ثم التعريف بطقس "تاغنجا" بموسوعة معلمة المغرب الأقصى، ضمن مقال للباحث عبد العزيز بلفايدة.

ثم التطرق في هذه الأبحاث وغيرها وكما سبقت الإشارة، إلى وصف طقس "تاغنجا" على اعتباره من الطقوس الفلاحية التي تؤدي في أوقات القحط، طلباً للغيث. سنحاول في هذا البحث دراسة هذا الميث في الزمن الطويل؛ بدءاً من العصر القديم إلى غاية الزمن الراهن، ورصد مدى قدرته على الاستمرار، محاولين الإجابة على التساؤلات التالية:

هل استطاع طقس "تاغنجا" الحفاظ على مكوناته الرئيسية، عبر تاريخ المغرب الأقصى الطويل؟
هل يمكننا الحديث عن زمن أسطوري ممتد، بدءاً من زمن الأصول إلى غاية الزمن الراهن؟

أولاً: الميث المرتبط بطقس "تاغنجا"

من الأكيد والثابت أن للمورين⁽¹⁾ مثل الشعوب البدائية، معتقداتهم الدينية والوثنية الخاصة بهم، فقد كانت طقوسهم السحرية تعبر عن تفكيرهم الأسطوري الذي ارتبط بالطبيعة ارتباطاً وثيقاً، يقوم على الإحيائية والأنسنة والتجسيد. بمعنى أن الإنسان الأمازيغي أسطوري منذ تواجده على الأرض⁽²⁾. ويفترض فهم وتفكيك أي فعل طقوسي شرط العودة إلى سنده التاريخي وحكاياته التأسيسية التي عملت على إيجاده وتكراره واستمراره، بما هي قواعد أساسية في المتن الطقوسي، فالطقس ليس خارج السياق الذي أنتجه. فما الحكاية والميثولوجيا المؤسسة لطقس تاغنجا؟ وما الداعي المجتمعي نحو إيجاده في الزمن الفلاحي؟
يقول مدون نص الأسطورة بقبيلة آيت زيكي بالقبائل (Genevois)⁽³⁾:

«في قديم الزمان، كان شخص اسمه أنزار، وهو ملك (سيد) المطر، أراد الزواج من فتاة رائعة الجمال تتألق حسناً على الأرض كالقمر في السماء، وكان وجهها ساطعاً وثوبها من الحرير المتلألئ، وكان من عادة هذه الفتاة أن تستحم في نهر فضي البريق، وكان ملك المطر كلما هبط إلى الأرض، يذنو منها فتخاف، ثم تعود إلى السماء، لكنه ذات يوم قال لها:

"ها أنا أشق عنان السماء، من أجلك يا نجمة بين النجوم، فامنحيني من الكنز الذي وهبته وإلا حرمتك من الماء". فردت عليه الفتاة: "أتوسل إليك يا ملك المياه، يا

طقوس كان الإنسان القديم يلجأ إليها، لإرضاء غضب الآلهة لتجنب عقاب عباده بالجفاف. وكان عليه مقابل تهدئة غضب الآلهة الخروج في جماعات إلى الهواء الطلق للتعبير عن رغبتهم لاستدراار المطر:^(٨) أشهرها وأقدمها طقس "تاغنجا"^(٩).

ويتم عن طريق الطواف بـ "عروس المطر"، وهي لا تزيد عن مغرفة - ملعقة كبيرة من الخشب تستعمل في تحريك وغرف الطعام- من خشب تلبس من الخرق والأسمال، إنه تمثيل يقوم على تقديم العروس نفسها لتحبل من المطر "أنزار"^(١٠). وترمز الملعقة للأرض العطشى، وتتم هذه الطقوس على شكل زواج أسطوري بين الأرض والمطر، من أجل الخصوبة وبعث النبات والزرع وقد تصاحب هذه الطقوس ممارسات جنسية فعلية، أي ليلة العروس، على أساس العلاقة التي توجد في كل مكان، بين الجنس والعمل في الأرض، والتأثير المعروف بسحر الحب على الفلاحة^(١١). ويشارك في هذا الطواف النساء والأطفال في جو من الغناء والابتهاال وأثناء المسيرة يتم تبليل المغرفة وتتم عملية جمع التبرعات لإقامة مأدبة^(١٢). وتنتهي الطقوس بدعاء لجلب المطر ويتم ذكر اسم الإلاه وحده، والغريب أن اسم الإلاه يرتبط بشكل غريب مع "تاغنجا"، اسم ألوهية الذي كان يحتل مكانا بارزا في البربرية القديمة^(١٣). ومن طقوس تاغنجا التي أوردتها (GENVOIS) اجتماع النساء والأطفال، وهن يحملن ملاعق كبيرة مكسوة بالأقمشة والجلد، على شكل دمية كبيرة، و يرددن أهازيج يطلبن فيها استدراار المطر، ويتم تحضير الطعام عند مزار أو ضريح، ثم تتبع تلك الحفلة بلعبة العصي التي تسمى "شيرة" تجتمع فيها الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج حول الفتاة التي تقوم بدور خطيبة أنزار، ثم تنقسم بعد ذلك إلى مجموعتين، كل واحدة منها ماسكة بعضا وتتقاذفن الكرة حتى تسقط في الحفرة المخصصة لها، وعندئذ تردد الفتاة خطيبة أنزار: "الأرض وأنا زوجتان... تزوجنا رجلا دون أن نراه...". وتدفن الكرة في المكان المخصص لها إلى احتفالات قادمة^(١٤). وفي منطقة الحوز^(١٥) يتشارك الرجال والنساء في هذه اللعبة؛ أما في بعض مناطق الشمال الشرقي لجبال الأطلس، تلعب إمرأتين أو ثلاث نساء عاريات، اللعبة

مرصع جبهته بالمرجان إني نذرت نفسي لك، بيد أي أخشى الأقاويل". وبعد سماع هذه العبارات قام من عليها، فأدار خاتمه، فنضب النهر على الفور، وجفت آثار الماء. فأصدرت الفتاة صيحة وتفجرت عينها بالدموع، فالماء هو روحها، فخلعت ثوبها الحريري وظلت عارية، فخاطبت السماء قائلة: "أنزار يا أنزار، يا زهر السهول، أعد للنهر جريانه، وتعالى خذ بثأرك". في تلك اللحظة بالذات لمحت ملك المطر، وقد عاد بهيئة شرارة برق ضخمة فضم إليه الفتاة، وعاد النهر إلى سابق عهده في الجريان، فاكستت الأرض كلها اخضراراً».

تبرز الأسطورة دور الماء في حياة الفتاة الجميلة "تاسيلت"، والتي تمثل في الميثولوجيا الأمازيغية الأرض، وقد اقترنت بالإلاه "أنزار" وزفت إليه في أبهى حلة، ذلك أن المطر الضروري للخصوبة هو في الميثولوجيا الأمازيغية السائل الناجم عن زواج كوني بين الأرض والسماء ممثلة في ملك المطر^(٤). فالفتاة الجميلة رمز للأرض التي تكتسي جمالها وخضرتها من ماء المطر، فالأسطورة تبرز دور الماء في حياة الأرض، وبدونه تتعرض للعطش وبالتالي للموت المحقق. كما يوجد في العديد من الديانات في آسيا وإفريقيا والأمريكيتين أن الخلق الكوني ينجم من زواج مقدس بين (الإلاه-السماء) و(الأرض-الأم). ولهذا نجد في العديد من طقوس الزواج إعلان الزوج نفسه أنه السماء و يخاطب زوجته أنها الأرض^(٥). فالأسطورة تروي تاريخاً مقدساً. أي حادثة أولية أو حكاية ما من صنع الآلهة أو الكائنات الإلهية، حدثت أطوارها في بدء الزمان^(٦).

ثانياً: طقس "تاغنجا" أو "عروس المطر"

بما أن الطقوس عادة ما ترتبط بالأساطير التي تفسرها؛ بل إن الشعيرة(الطقس) ليس إلا احياء للأسطورة، فالطقس هو أسطورة في إطار الحركة كما يرى (Van Der Leew)^(٧). سنقوم بعرض بعض نماذج طقس "تاغنجا" في بعض مناطق المغرب، ورصد مدى حفاظ الطقس على مكوناته الرئيسية التي جرت في الزمن الأول.

تنوعت الطقوس السحرية الدينية التي مارسها الموريون، من بينها نجد طقوس استدراار المطر. وهي

ويتم تزيين الملعقة كعروس "تاغنجا" وزفها لعريسها "تاسيلت"^(٢٦). أما سكان قبائل الأطلس الكبير فتتخذ الطقوس عندهم شكلاً مختلفاً أثناء إعداد "تاغنجا"، حيث تتولى الإعداد نساء مطلقات أو أرامل، في منزل تعد صاحبه أكثر فضيلة وورعا، وتقمم بإعداد "تاغنجا" على شكل عروس، حيث يتم رسم ملامح الوجه: الفم والأنف والعينين وتزيينه ولفه بغطاء لإضفاء طابع التدين عليها، ومن تم حملها لأضرحة الأولياء وهن يرددن:

"تاغنجا حلات راسها"^(٢٧)
 ياربي بل حراسها"^(٢٨)
 تاغنجا يا مرجا"^(٢٩)
 يا ربي جيب الشتا"^(٣٠)

ثم ينضم إلى الموكب مجموعة من الأطفال والنساء الذين يشاركون في الغناء، ويتوجه الموكب إلى منازل الوجهاء لجمع التبرعات، بعدها يبدأ الطواف إلى وقت متأخر من الليل؛ ويمكن أن يتكرر الاحتفال ثلاث ليالٍ متتالية إذا لزم الأمر، ثم تجتمع النساء في المنزل الذي تم فيه إعداد العروس "تاغنجا" لاقتسام العطاءات، لتأخذ المراسيم طابعاً قدسياً حيث يتم التوجه إلى ضريح ولي صالح، وتوزيع المأدبة وقراءة الفاتحة^(٣١). كما أن طقس "تاغنجا" يمارس في المغرب كما يمارس في تونس خاصة في الجنوب، وفي الجزائر وهي تعرف تحت أسماء مختلفة، "تاغنجة"، "عروسة أنزار"، "أم تيبو" أو "أم تكو"^(٣٢).

إن المساهمون في الطقس - بوعي أو بدونه- يصبحون معاصرون للحادث الأسطوري وبعبارة أخرى، يخرجون من زمانهم التاريخي،- زمان مكون بجملة أحداث دنيوية- ويعانقون الزمن البدئي، الذي هو دائماً نفسه، وينتمي للأزلية. فالزمن الأسطوري هو حاضر أبدي يمكن استعادته إلى ما لا نهاية^(٣٣). فعلى قدر تقليد الإنسان الديني للآلهة، فإنه يحيا الزمان الأسطوري، إنه يخرج من الديمومة العادية ليلحق بركب زمان "ثابت"^(٣٤). ويلعب الزمن المقدس (يوم الجمعة)^(٣٥) دوراً كبيراً في تنظيم الطقوس والممارسات لما لها من دلالات رمزية دينية قوية، ففي منطقة سكورة بالجنوب الشرقي للمغرب، تبتدئ شعائر "تاغنجا" باستيقاظ النساء في

بعيدا عن أعين الرجال؛ وفي منطقة تسول- قبيلة أمازيغية زناتية- بالشمال الغربي لمدينة تازة، تشارك في هذه اللعبة نساء عاريات- دون تحديد عددهن- ويقذفن الكرة بملعقة من خشب^(١٦). وقد أشار جوليو إلى الترابط بين لعبة "شيرة" القديمة جدا في شمال إفريقيا، وطقوس استدرار المطر^(١٧)؛ ويظهر عنصر التشابه في اشتراك اللعبة وطقس "تاغنجا" في عنصر الاستثارة الجنسية الأنثوية، سواء بتمثيل فتاة لخطيبة أنزار، أو بمشاركة نساء في اللعبة عاريات، كما خلعت "تاسيلت" ثوبها وبقيت عارية، عندما هجرها "أنزار" بعد أن قام بتجفيف مياه النهر.

وهناك طقس جد قصير بمنطقة الغرب عندما لا يبقى متسع من الوقت في فصل الشتاء، تقوم الفتيات بالطواف على المنازل تحملن مغرف مليء بالماء، وهن يرددن:

تاغنجا تاغنجا يا أم الأمل
 نرجوا من الله أن يرزقنا بالمطر

فتقوم النساء بسكب بضع قطرات من الزيت في مغرفتهن^(١٨). هذا الطقس يحتوي كذلك على سحر تعاطفي من خلال غايته وشكله، فالمغرف التي تكون في وضع داعم تشير إلى رغبتها في سقوط المطر^(١٩). وينظم طقس طلب الغيث على الطريقة المحلية "تاغنجا" في قبيلة فجدامة^(٢٠)، في فصل الخريف أو الربيع^(٢١). وبمنطقة آيت بعمران الواقعة بالجنوب المغربي، يتم صنع عروس بالمغرفة التي تستعمل في تحريك العصيدة، ويقومون بلف حزام أحمر طويل حول الفتاة التي تقوم بحمل المغرف في الليل، وعند الطواف يردد الأطفال الذين يمشون خلف الفتاة: "تاغنجا تاغانجا ياربي عطينا الشتا" فيدخل الموكب إلى المنازل، فيقوم أصحابه برش المغرف والأطفال بالماء^(٢٢). وفي منطقة أمزمير^(٢٣) تطوف النساء حول الدوار، تحملن مغرف معلقة على قصب ومزينة بقلادة وهن يرددن: "يا ربي عطينا الشتا برحمة مولاي بوشتا"^(٢٤)، وتقمم بجمع الدقيق لإعداد وجبة المعروف، وأثناء إعداد الوجبة يحمل "الرما"^(٢٥)، بنادقهم لتحفيز السماء على الأمطار، وبعد تناول الوجبة يردد الجميع: "يا ربي اعطينا الشتا"،

توات، يخرج الناس زمن الجفاف رجال ونساء وأطفالاً، يأخذون ملعقة من خشب ويلبسونها ملابس نسائية، تحملها فتاة شابة وهم يرددون: "يا ملعقة يا مراعي ربي فوت- أي أبعد- وقت الحر"^(٤٣).

إن تزيين مغرفة "تاغنجا" على شكل عروس ماهي إلا محاكاة للأسطورة بما تتضمنه من إحياءات جنسية لتحفيز أنزار (رمز الذكورة). فنجد الماء يلعب دوراً أساسياً كعنصر للذكورة، فالأرض تحيط بها المياه من كل جانب، وكأن البحار والمحيطات تحتضن الأرض وتضاعفها^(٤٤). فاتصال "أنزار" رب المطر "بتاسيلت" المجسدة للأرض المتعطشة للمطر، في طقوس "تاسيلت" أونزار/ تاغنجا" والأسطورة المفسرة لها حيث تتوسل عروس أنزار مجسدة في فتاة جميلة (مغرفة ترمز للفتاة) تستحم في واد عارية إلى الملك أنزار رب المطر أن ينزل ليعانقها، ويتدخل لينقذ الأرض والحقول الضمأ ويعيد إليها الحياة والخضرة^(٤٥). ومن بين الملاحظات كذلك حول طقس "تاغنجا"، أن التوجه بالموكب إلى أضرحة الأولياء، وترديد اسم تاغنجا مقروناً باسم الله "الإله" عند طلب الغيث، جاء مع دخول الإسلام، وذلك لإضفاء طابع ديني على المراسيم^(٤٦)؛ خاصة أن الكرامة الصوفية لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب الأقصى، ومن بينها كرامة الاستسقاء، فالعديد من كتب المناقب والتراجم، تشير إلى الاستسقاء بالأولياء في عملية الاستمطار، والتوسل بأضرحتهم بعد الممات.

إن احتفاظ طقس "تاغنجا" بنفس مراسيمه، دليل على أن هذا الطقس عرف استمرارية دون انقطاع من العصر القديم إلى الوقت الراهن مروراً بالعصر الوسيط. فرغم ندرة الإشارات في المصادر الوسيطية^(٤٧)، فإن هذا الطقس عرف استمرارية، دليلنا في ذلك استمراره إلى غاية الزمن الراهن. ومن الإشارات القليلة التي تؤكد وجود طقوس وثنية في العصر الوسيط، إنكار الونشريس على الناس الطواف في الجبال والصحاري والأرقة بالصبيان والنساء والصياح، وقال: "إنه مكروه ومبتدع"^(٤٨).

إن عرضنا لبعض الأمثلة من الزمن الراهن لطقس "تاغنجا"، كان نتيجة إيماننا بوحدة الظاهرة عبر التاريخ، وهذا ما عبر عنه الباحث الفرنسي (ريني باسيه René

الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة، من أجل إعداد فطور خاص بهذا اليوم، ثم ترتدين اللباس التقليدي المحلي، وتزين بالحلي الفضية الخاصة بالمناسبات الاحتفالية، وتضعن مسحوق الكحل في أعينهن^(٣٦). إن الزمن المقدس المتمثل في يوم الجمعة، له رمزية خاصة عند المغاربة باعتباره اليوم المبارك وخير الأيام، لذلك فإقامة طقس تاغنجا فيه يحمل أكثر من معنى يضيفه الأفراد في متخيله الجماعي^(٣٧).

كما كانت النساء في بعض مناطق المغرب يستحممن في الماء عاريات، فهي دعوة إلى تخصيص الأرض المجدبة^(٣٨). ففي نواحي أكادير كانت النساء يذهبن في الماضي أثناء الجفاف إلى ضفة واد سوس، وهن يرددن الأهازيج ويتجردن من ثيابهن، ويضلن عاريات، حيث يحاولن استثارة المطر، فهن بذلك يعشن طقسياً الأسطورة، ويكررن فعلاً أسطورياً قامت به عروس المطر المستحمة في النهر عارية في الأسطورة، حيث أثارت غريزة أنزار الذي أغدق عليها من سائله، واخضرت الأرض، إنهن يتخلصن بالأسطورة المستبطنة، وعن غير وعي، من الزمن الكرونولوجي، ويستعدن الزمن الأسطوري الذي جرى فيه الحدث البدئي: أي الزمن الأسطوري المقدس^(٣٩). فالمطر وتخصيب الأرض، هي في تصور الناس أمور مترابطة بالمحاكاة بالرمزية الجنسية^(٤٠).

من هنا كانت الأهمية الرئيسة للأساطير في كل الأديان. لأن الأساطير تحكي إشارات الآلهة، وهذه الإشارات تشكل النماذج المثالية لكل النشاطات البشرية. فبمقدار ما يقلد الانسان المتدين آلهته بمقدار ما يعيش في زمن الأصل، الزمن الأسطوري، إنه "يخرج" المدة الدنيوية ليجمع زمناً "جامداً"، "الأزلية"^(٤١).

بما أن أسطورة "تاسيلت أنزار"، اعتنقها جميع الأمازيغ الذين استوطنوا شمال إفريقيا، آثرنا عرض بعض طقوس "تاغنجا" بمناطق الجزائر، والتي تبرز وحدة الطقس بدول المغرب، ومدى قدرته على الصمود؛ ففي تلمسان، وعين صفرا ومازونا، تختار ملعقة من خشب يتم لباسها بخرق بطريقة يجعل منها كدمية تمثل خطيبة أو عروسة، تسمى "غودنجا"، ويتم تطوافها على مقابر الأولياء المحليين^(٤٢). وفي منطقة تيط بواحة

المساجد وأضرحة الأولياء والصلحاء، وبالتالي يكون هذا اللجوء هو استكمال للممارسات الطقوسية القديمة التي تبحث عن الاحتماء بالمقدس والرعاية الإلهية عبر الشعائر الإسلامية^(٥٣). وهو ما عبر عنه الباحث خالد الرامي بعملية أسلمة الموروث الثقافي المائي الأمازيغي، من خلال الاحتفاظ بالشكل وإفراغه من محتواه الوثني ما قبل الإسلامي، وتعويضه بمفاهيم وقيم إسلامية جديدة^(٥٤). ومن أبرز مظاهر هذه الأسلمة، أن الدعاء أثناء الطواف يكون موجهاً إلى الله الواحد الأحد، لنشر رحمته على عباده؛ كما يرافقه توزيع الصدقات، كنوع من التقرب إلى الله، وتكفيراً للذنوب، خاصةً أن الوعي الجماعي دائماً ما يربط الكوارث الطبيعية ومن بينها الجفاف، بكثرة الذنوب والمعاصي. كما أن حرص بعض المناطق على إقامة الطقس يوم الجمعة، من مظاهر أسلمة الطقس.

استطاع طقس "تاغنجا" البقاء والصمود منذ زمن التأسيس التي ظهرت فيه الأسطورة، والتي تعود إلى الفترة القديمة من تاريخ المغرب، مروراً بالفترة الوسيطة وانتهاء بالزمن الراهن. فقد أجمع كل الباحثين على الوحدة المثيرة لطقس "تاغنجا" بشمال إفريقيا، لأنها ترتبط بنسق رمزي واحد ومتشابه، وتستند إلى خلفية أسطورية قديمة، ورؤية كونية أمازيغية واحدة لعلاقة السماء بالأرض، وهي طقوس تتفق كلها على اضماء مواصفات العروس على الشخصية المركزية سواء أكانت فتاة أم بديلاً لها (المغرفة) بتزيينها بالحلي، وبتشخيصها برسوم إنسانية، وحملها كعروس حقيقية في موكب مناظر لموكب الزفاف الإنساني نحو زوجها أنزار^(٥٥). ورغم تشريع الإسلام لصلاة الاستسقاء، التي يقيمها المسلمون في المساجد طلباً للغيث؛ فطقس "تاغنجا" يقام في نفس الوقت الذي تنظم صلاة الاستسقاء من طرف المسلمين^(٥٦). ورغم الانتشار الهائل للكرامة الصوفية - من بينها كرامة الاستسقاء - في المجتمع المغربي عبر تاريخه الطويل. فإن طقس "تاغنجا" استطاع الصمود والبقاء. فالثقافة الأسطورية ظلت حاضرة رغم حضور الديانات التوحيدية الثلاث في شمال إفريقيا^(٥٧). وفي هذا الصدد، يقول: (دوطي Douté): "في الحين الذي تتغير

(basset) أن طقس "تاغنجا" حافظ على استمرارية أثر الأسطورة^(٥٩). وتظهر هذه الاستمرارية في المكونات والفاعلين الطقوسيين الذين يتأسس عليهم الطقس، فالنساء والفتيات هن المشاركات في الموكب الاحتفالي والدمية أو المغرفة تزين كما تزين العروس ليلة الزفاف، والحامل لهذه القصبه أو المغرف الكبير هي المرأة، وما يستقبل هذا الموكب هن ربوات البيوت اللواتي يقمن برشهن بالماء، فالأهمية الرمزية التي تمثلها المرأة يجعلها فاعلة في تنظيم هذه الطقوس^(٥٠). فإنه المطر "أنزار" في الميثولوجيا الأمازيغية لا ينزل المطر كما يشاء أو متى يشاء، بل كلما هاج طلباً للجنس، فالمطر مني تُمنى من السماء لما يهيج إله المطر تحت دافع الرغبة الجنسية. ولما كان هيجان إله المطر مشروطاً بوجود عروس المطر، فإن تقديم تمثال العروس له يكفي لتهيجه وبالتالي إنزال مطر كثيف، لذلك بات الاستسقاء يمارس وإلى اليوم، بصنع تمثال عروس ترفعه النساء إلى السماء طلباً للغيث في موكب احتفالي^(٥١).

ثالثاً: طقس "تاغنجا" ومجيء الإسلام

في أطروحته حول أسلمة المعتقدات القديمة، يرى إدمون دوتي، أن سكان شمال إفريقيا اضطروا مع مجيء الإسلام إلى التحايل من أجل المحافظة على معتقداتهم الأصلية؛ وذلك بتكييف هذه المعتقدات مع مقتضيات الدين الإسلامي الجديد عن طريق مزجها بطقوس وممارسات دينية إسلامية، ذلك أن الإسلام لم يكن بوسع القضاء على الشعائر السابقة عليه، بل إنها مدمجة في الشعييرة الإسلامية نفسها ومنصهرة فيها أي تمت أسلمتها^(٥٢).

فمن خلال الأمثلة التي عرضناها سابقاً، يمكننا القول إن الطقس حافظ على الأساس الذي تأسس عليه والمتمثل في الاستثارة الجنسية، عن طريق حمل قصبه مزينة بالملابس النسائية، ورفعها إلى السماء، أو تمثيل فتاة حقيقية لخطيبة "أنزار"، أو عن طريق تعري النساء. لكن مع دخول الإسلام تمت أسلمته. فحسب إدمون دوتي فمع دخول الإسلام تحولت التعاويذ إلى دعوات وابتهالات، كما أن اللجوء إلى أحد المساجد أو ضريح ولي صالح، يبرز الأهمية الدينية الرمزية التي تمثلها

الإحالات المرجعية:

- (1) سكان المغرب قبل مجيء الإسلام.
- (2) جميل حمداوي، **الديانة عند الأمازيغيين**، شبكة الألوكة، دون تاريخ طبع، ص ٣.
- (3) Genevois, "Un rite d'obtention de la pluie: la fiancée d'anazar", in actes du 2ème congrès International d'études des cultures de la méditerranée occidentale II, Algérie 1978, p-p (393-401).
- (4) محمد أوسوس، **كوكار في الميثولوجيا الأمازيغية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، طبعة ٢٠٠٨م، ص ١٢.
- (5) مرسيا الياد، **المقدس والعاوي**، ترجمة عادل العوا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ٢٠٠٩م، ص ١٢٦.
- (6) نفسه، ص ١٧٤.
- (7) **كوكارا في الميثولوجيا الأمازيغية**، مرجع سابق، ص-ص (١٧-١٨).
- (8) عبد المجيد أمريغ-عبد الهادي فك- نور الدين ازديدات، **المعتقدات الدينية المحلية بالمغرب القديم**، مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الإنسانية، العدد الحادي عشر، مارس ٢٠١٧م، ص ٩.
- (9) عبد الأحد السبتي، **من عام الفيل إلى عام المريكاني: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، منشورات المتوسط- إيطاليا، طبعة ٢٠٢٢م، ص ١٤٩.
- (١٠) كامب غابرييل: **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة، حزل عبد الرحيم، أفريقيا الشرق- المغرب، طبعة ٢٠١٤م، ص ٢٤٣.
- (١١) مصطفى أعشي: **الماء في القديم**، ضمن مقالات معلمة المغرب الأقصى، الجزء ٢، مطابع سلا ٢٠٠٤م، ص ٦٩٢٦ - **أمان**، ضمن المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته، إشراف حمام محمد، الجزء ١، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، طبعة ٢٠٠٤م، ص ٤٣.
- (١٢) عبد العزيز بل الفايدة، **تاغنجة**، ضمن مقالات معلمة المغرب الأقصى، الجزء ٦، مطابع سلا ١٩٩٢م، ص ٧٣.
- (13) LAOUST Emile **Mots et choses berbères**, Librairie maritime et coloniale, Paris, 1920, p20٥.
- (14) **Un rite d'obtention de la pluie: la fiancée d'anazar**, Op.Cit p-p(393-401).
- (١٥) يقع إقليم الحوز جنوب غربي المغرب، تبلغ مساحته حوالي ٦٢٠ كيلومتر مربع، ويضم نحو أربعين بلدة ومدينة، تغلب الجبال على تضاريسه، إذ تشكل ثلاثة أرباع مساحته، وفيه توجد أعلى قمة جبلية في المغرب، وهي جبل توبقال الذي يبلغ ارتفاعه ٤١٦٥ متر فوق سطح البحر.
- (١٦) Léonce. JOLEAUD, **Gravures rupestres et rites de l'eau en Afrique du Nord**. Rôle des Bovins, des Ovins et des caprins dans la magie berbère préhistorique et Actuelle, journal des africanistes, T, III, Fasciule I, 1933,24-242.
- (17) Ibid, p244
- (18) **Mots et choses berbères**, Op.Cit,p 205.
- (19) Ibid

فيه المعتقدات، يظل الطقس باقياً كتلك المحارات المستحة والرواسب التي نصادفها في كل مكان".^(٥٨)

خاتمة

إن النموذج التاريخي المغربي يبقى تاريخاً دينياً وطقوسياً رمزياً بامتياز، محددًا لمختلف السياقات الدالة على حياة وانشغالات الأفراد المعيشية اليومية عبر التاريخ. هذه الطقوس شكلت زمناً دائرياً، تكشف عن علاقة التكرار والاستمرارية على مستوى بنية الطقس. فطقس "تاغنجة" أعاد إنتاج نفس النسق كلما ترددت كارثة الجفاف. وهو ما يسمح لنا بالقول أن: "الزمن الأسطوري لأسطورة" تاسيلت أنزار" استطاع الصمود والبقاء أمام الزمن الكرونولوجي؛ هذا الزمن -أي الأسطوري- يظهر ويتجدد في زمن القحط والمجاعات عبر جميع حقب تاريخ المغرب؛ فالأمر يتعلق بزمن دائري، يتكرر ويعيد نفسه إلى ما لا نهاية".

- (٢٠) قبيلة أمازيغية من قبائل الأطلس الكبير الشرقي.
- (٢١) **من عام الفيل إلى عام المريكان: الذاكرة الشفوية والتدوين التاريخي**، مرجع سابق، ص ٧٩.
- (22) **Mots et choses berbères**, Op.Cit,p, ٢٠٦.
- (٢٣) مدينة صغيرة، تابعة إدارياً لإقليم الحوز. تتميز بطبيعتها الخضراء، وبجبالها العالية التي تمتد من سلسلة جبال الأطلس الكبير، والتي تعطي هذه المدينة الصغيرة جمالاً ورونقاً منذ القديم. وتعتبر هذه المدينة من أقدم المدن المغربية حيث شهدت استقرار مجموعة من القبائل والأجناس المختلفة من مسيحيين ويهود استقروا بها وزاولوا مجموعة من الحرف والمهن التي جلبوها إلى المنطقة.
- (٢٤) هو محمد بن موسى بن عبد الله الشهير بمولاي بوشتن الخمار، وعن سبب اشتهاه بهذا اللقب، أن الناس استسقوا به فنزل الغيث بكرامته، فأطلقوا عليه لقب أبو الشتاء أي ولي المطر، وكانت تلك عادة المغاربة يكونون كل واحد بما اشتهر به من علامة أو فعل أو غيره.
- (٢٥) **الرملا**: مجموعة غنائية شعبية من فنون التراث الشعبي المغربي، ظهر هذا الفن من عهود خلّت، وكلمة "الرملا" مشتقة من الرماية بالبندقية؛ إلى درجة يمكن القول إن أفراد المجموعة هم في الأصل رماة؛ كان همهم الأساسي هو التدريب على الرماية بالبندقية والاستعداد الدائم للدفاع العسكري.
- (26) **Mots et choses berbères**: Op.Cit, p206.
- (٢٧) حلّت رأسها: أطلقت شعرها.
- (٢٨) بل حراسها: بلل الذين يحرسونها، وهي دعوة لتبلييل ثياب الحاضرين بمياه المطر.
- (٢٩) المربة: هي البحيرة الصغيرة التي تجتمع فيها مياه المطر.
- (٣٠) جيب الشتاء: امنحنا المطر.
- (31) **Mots et choses berbères**: Op.Cit, p20٧
- (٣٢) **تاغنية**، مقال سابق، ص ٧٣، ٢٠٦.
- (٣٣) مرسيا الياد، **المقدس والمهندس**، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، الناشر دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص ٧٠.
- (٣٤) **المقدس والعادي**، مرجع سابق، ص ١٣٦.
- (٣٥) عند القزويني **يوم الجمعة**: عيد الملة الحنيفة وسيد الأيام، قال رسول الله (ﷺ): "خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أسكن الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تاب الله عليه، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله إياه"/ - **من عام الفيل**، مرجع سابق، ص ١١٠-١١١.
- (٣٦) حنان حمودا، **الماء وصناعة المقدس**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى ٢٠٢١م، ص ٨٣.
- (٣٧) هشام كموني، **تاغنيا أو "تيسيلت أنزار" - طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي**، مقال ضمن مؤلف جماعي، **الطقوس والممارسات الفلاحية: إثنوغرافيات التراث اللامادي**، تنسيق عبد الكريم مرزوق وعبد الرحيم العطري، منشورات جامعة الأخوين إفران، ومؤسسة مقاربات، فاس، الطبعة الأولى ٢٠٢٢م، ص ٥٥.
- (٣٨) **البربر ذاكرة وهوية**، مرجع سابق، ص ٢٤٣.
- (٣٩) محمد أوسوس، **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأبحاث ٦- مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، طبعة ٢٠٠٧م، ص ١٦٠.
- (٤٠) **البربر ذاكرة وهوية**، مرجع سابق، نفسه، ص ٢٤٤.
- (٤١) **المقدس والمهندس**، مرجع سابق، ص ٨٢.
- (٤٢) روني باصي، **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة وتقديم، حمو بوشخار، الناشر، دفاتر وجهة نظر، مطبعة النجاح، الجديدة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م، ص ٤٩.
- (٤٣) نفسه، ص ٥٠.
- (٤٤) **الماء في القديم**، مقال سابق، ص ٦٩٢.
- (٤٥) **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، مرجع سابق، ص ١٦٢.
- (46) **Mots et choses berbères**, Op.cit, p210.
- (٤٧) يمكننا تفسير ندرة الإشارات لطقس تاغنيا في المصادر الوسيطية، أن هذه الأخيرة اهتمت بالحدث العسكري والسياسي على حساب ما هو ذهني واجتماعي؛ إضافة لظهور ظاهرة التصوف وانتشارها في هذه الحقبة، وما ارتبط بها من كرامات خاصة كرامة الاستسقاء لدى الأولياء؛ لهذا نجد اهتمام كتب المناقب بكرامة الاستسقاء، وتهميش ما له ارتباط بطقوس وثنية تعود لفترة ما قبل مجيء الإسلام.
- (٤٨) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف حجي محمد، المجلد ١، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، طبعة ١٩٨١م، ص ١٦٤.
- (٤٩) حنان حمودا، **الماء كمنشط أثربولوجي لإنتاج الطقوس بواحة زكورة جنوب المغرب**، مجلة إضافات، العددان ٣٣-٣٤، شتاء- ربيع ٢٠١٦م، ص ١٣٤.
- (٥٠) **تاغنيا أو "تيسيلت أنزار" - طقوس الاستمطار في المجتمع المغربي**، مقال سابق، ص ٤٩-٥٠.
- (٥١) نفسه، ص ٤٤-٤٥.
- (٥٢) إدمون دوتي، **السحر والدين في شمال إفريقيا**، ترجمة، فريد الزاهي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩م، ص ١٤.
- (٥٣) نفسه، ص ٣٢٢-٣٢٣.
- (٥٤) خالد الرامي، **النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان ١٨٦٢-١٩١٣**، منشورات جمعية تطوان أسمى، تطوان، ٢٠٠٨م، ص ٣٢.
- (٥٥) **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، مرجع سابق، ص ١٧.
- (٥٦) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوثنة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات بالرباط رقم ١٨، طبعة ١٩٩٢م، ص ٣٥١.
- (٥٧) **كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية**، مرجع سابق، ص ٢١.
- (٥٨) إدموند دوطي: **السحر والدين في أفريقيا الشمالية**، ترجمة: فريد الزاهي، منشورات مرسم، مطبعة بريقاق الرباط، ٢٠٠٨م، ص ٤.